التطفل في الاحياء

لمراسبر مصطفى الشرباتي

رحم الله طفيلياً الكوفي فلقد خلد اسمهُ في كتب الادب ومعاجم اللغة بشرط بيعه وشلة حوضه على لذيذ المآكل ، واستسهاله غضبان الولائم دون ان يدعى اليها ، حتى ظنَّ بعضهم انهُ اول من اتى هذه الفعلة الخبيثة ، وحتى نسي الناس الوَرَش وهو التطفل والوارشين وهم الطفيليون . وطفيل هذا ليس بأول من دَمَّر على الولائم ليعيب من طعامها ، ولا بأول من دسق على المقارب ليوغل في شرابها . وكل حي على هذه الارض طفيلي ابن طفيلي شاء ام ابى الا اذا استطاع ان يعيش في عزلة عن الناس ، ومن الحيوان ومن النبات وهو ما لا تأخذ به عيشته على هذه الكرة الارضية . ورب طفيلي يفيد اكثر مما يستفيد كاسحق الموصلي الشهير اذ يحكون انهُ دخل بلا اذن على جمع فيهم قينة تضرب على عود فلم ترقهُ حالتها وتاره فاقترح اصلاحها فتبرَّم الحضَّار وقالوا له طفيلي ويقترح وهو المثل المعروف ، فأمر الموصلي المغنيين بعدها ما اقامهم واقعدهم حتى جنَّ جنونهم فكانت صفقتهم في الرابحة . وقد يورد التطفل صاحبه موارد التلف كقصة ذاك الذي رأى جماعة يسيرون او يُسارون جميع الطريق فظنهم ذاهبين الى وليمة فاندس بينهم فاذا بهم ذاهبون الى القتل ، ولم تملت صاحبنا من السيف والنطع الا بعد لأي

ولكن ليس جميع الطفيليين على هذا لأن الطفيلي في غالب الحالات يأخذ منك اكثر مما يعطيك وهو اذا قصر همه على اشباع بطنه او اروائه غليله من فضلات زادك او شرابك كان امره اهون من ان يعتدَّ به او ان يؤبه له . غير ان هنالك الوارشين على مالك كالمرابين وعامرة السوء واللصوص من التجار ولا سيما بعض الاجانب منهم ، والوارشين على علمك وأدبك وآثار قلمك ينقلون خيارها وينتحلون منها ويتحلون بها وانتك راتعم ، والوارشين على بلادك يتمتعون بخيراتها ويسعدون في جناتها ويسخرون السفلة من ابناء جلدتك في استعصاء دمائها وسرقة اعلاقها . ولا حد يا صاح لاعمال الوارشين من ابناء آدم فمنهم من لا يقل عملهم عن عمل التينيا وهي الدودة الشريطة اذ تستقر في امعائك تشاطرك كل ما تهوي به على ذاك ، او عمل الدودة التي تستولي على عضلك ، او عمل الديدان الاسطوانية او المعقوفة عند ما تتكاثر في دقاق امعائك وتمتص زادك ودمك ، او عمل الجراثيم التي لا عمل لها وهي تنمو في احشاء جسمك وتتكاثر بسرعة البرق فتولد فيك الامراض التي تعرفها ، وربما قضت عليك وقذفت بك الى العالم الثاني في ايام او في ساعات معدودات ما لم تكن جلباً منح الجانب عليها برسائل الكفاح ، ففي هذه الجال ربما افلتَّ من براثنها كما تفلت من براثن الطفيليين من ابناء آدم اذا تحليت بالصفات التي ذكرتها وكنتَ جديراً بالبقاء

ولا يذهبنَّ بك الظن الى ان الانسان والحيوان منفردان بهذه الاعمال الشائنة ، ففي دوحة النبات

انواع كثيرة تقوم افرادها بأعمال التطفل على مختلف اشكالها . فمن هذه الاعمال ما لا ضرر فيه كأن تطفل بعض النباتات المتسلقة شجرة او سلكاً او حائطاً و عمى تصعد عليها للتقرب من اشعة الشمس ومن خالتها العلي الاعلى . وهذه النباتات كثيرة لعلك يعرف القراء كثير منها كالطبوق المتسلق وصنوف من القرع واللوبياء والجلبان العطر وحشيشة الدينار وشب الليل والكرمة وغيرها . ويكون لها اسلاك تسمى عطفات او حوالق تعتمد بها دعامتها وتسير لغايتها صُعُداً الى الملاء فلا هي تضر بضيفها ولا هي تبخل على الانسان بأزهارها المعشة او بأوراقها الجميلة او بأثمارها اللذيذة

ويا ليت كل الطفيليات كانت كهذه اذن لسهل امرها وهان شأنها ولما استحقت هذا الاسم القبيح . ولكن هنالك نباتات متسلقة ثقيلة الظل شديدة الوطأة على الشجرة المضيفة ، كالبلاب مثلاً فهو اذا التف على شجرة تشبث بكل شق دقيق من اغصانها وسوقها كأنهُ يخاف ان تفلت منهُ فيصبح مقعداً . وتراه ينمو على تلك الشجرة ويلتصق بها ملتًّا وشغفاً دون ان يمتص شيئاً من نسغها ، بل يكسوها بأغصانه وأوراقه ويمنع عنها الشمس والهواء فتستجير من ثقالته بالفلاح صاحب الارض فان اجارها سلمت والاَّ عاشت هزيلة او حالكت مع الهالكين . وكم في الناس من ثقلاء كالبلاب اذا انت لم ترصد دارك دونهم قتلوا وقتلك وضيقوا انفاسك وأثاروا اعصابك وقصروا عمرك

وليست هذه النباتات طفيليات حقيقية لانها وان نزلت بأبناء جلدتها ضيوفاً ثقيلة الظل فهي لا تستطعمها ولا تستقي منها . وثمة ما هو اشد منها فضاعة كالكشوث الذي يسميه الشاميون والمصريون «الحالوك» فهو ينمو على بعض البقول وعلى الورد ونبات السياج وغيرها ويلتف عليها بأغصانه الخيطية وينشب فيها مصات دقاقاً ولا ينفك يمتص نسغها ويغتذي به حتى تهزل وتبيد . وكالحنطيل والشُّؤون اذ ينشبان اظفارها في جذور ما يصادفانه من الزروع فيغتذيان من نسغها ويعيشان وعد من دم الغير بلا مشقة ولا عناء . وكنبات الهدّالة او الدبق فلكم شاهدناه على اشجار الطور زاهياً ينعم بطل (نسغ) هذه الشجرة وهو اسعد خلق الله حالاً . فهل جال بخاطره انه يعيش من دم هذه الشجرة المباركة . وهب انهُ ادرك فظاعة عمله افتراهُ يرتدع عن الاضرار بها وهو لا يستطيع ان يعيش الاَّ من زاد الآخرين وكل هذه الطفيليات لا تعد شيئاً مذكوراً اذا قيست ببعض فطور مجهرية تتكاثر في نسج بعض الزروع والاشجار وتولد فيها امراضاً شديدة الوطأة لا تقل عن الامراض التي تحدثها الجراثيم بالانسان . ومن هذه الفطور تلك التي تولد صدأ الحبوب واسوداد الزروع وتعفن الكرمة وغيرها من الامراض التي تعد بالمئات

وبعد فرأيت ان الحياة جلاد وجهاد ، وان كل حي طفيلي ابن طفيلي على اختلاف وطأته . وهل لك ان تفسر لنا لماذا جعلت الاحياء على هذا الشكل ولماذا لا تعيش بهناءة وما لم تتكالب على الرزق وما لم تتفانَ وراء متع الحياة وما لم يُبِدْ بعضها بعضاً في الدقيق والجليل من الشؤون ؟ هذه امور دقت عن متناول افهمنا . ويقولون ان فيها حكمة لا يدركها الاَّ الذين اتضحت الغشاوة عن بصائرهم . فهل انت من هؤلاء النفر المليمين لتكشف لنا القناع عن محيا هذا الوجود العجيب ؟